



## The Novel of the Historical Phenomenon: A Reading of *The Flight of the Cranes in the Cities of Agate* by Omaima Al-Khamis

Dr. Khalid Bin Ahmed Al-Rifai\* 

[kaalrafai@imamu.edu.sa](mailto:kaalrafai@imamu.edu.sa)

### Abstract:

This study introduces the concept of the “novel of the historical phenomenon” through an analysis of *The Flight of the Cranes in the Cities of Agate* by Omaima Al-Khamis. Unlike conventional historical novels that primarily reconstruct events, the novel approaches history as a complex cultural and intellectual phenomenon, particularly the crisis of the Arab mind portrayed in the narrative as the “imprisoned mind.” The research argues that this mode of historical representation requires a distinct narrative structure characterized by breadth, complexity, and multilayered interaction between historical reference and imaginative reconstruction. Organized into three analytical sections, the study examines the novel’s method of invoking history, the features of the historical phenomenon within its discourse, and the deeper implications underlying this phenomenon. The findings reveal that representing history as a phenomenon generates a richly textured narrative form marked by multiplicity of characters, intertwined events, expanded temporal and spatial dimensions, and dense descriptive detail. The study further demonstrates that this narrative approach imposes greater intellectual and artistic demands on the novelist, as it requires sustained engagement with the complexity, historical extension, and cultural influence of the phenomenon under representation. Ultimately, the research highlights the capacity of contemporary Saudi fiction to reimagine history through innovative and philosophically informed narrative structures.

**Keywords:** Historical Novel, Novel of the Historical Phenomenon, Invocation of History, Novel and History, Narrative Discourse.

---


\* Assistant Professor of Literature and Criticism, Department of Literature, Rhetoric, and Criticism, College of Arabic Language, Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University, Saudi Arabia.

**Cite this article as:** Al-Rifai, K. B. A. & Al-Hudithy, M. B. M. S. (2026). The Novel of the Historical Phenomenon: A Reading of *The Flight of the Cranes in the Cities of Agate* by Omaima Al-Khamis, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, 8(2): 142 -161. <https://doi.org/10.53286/g3y3bv40>

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.



## رواية الظاهرة التاريخية: قراءة في رواية (مسرى الغرائيق في مدن العقيق) لأميمة الخميس

د. خالد بن أحمد الرفاعي\* 

[kaalrafai@imamu.edu.sa](mailto:kaalrafai@imamu.edu.sa)

### المخلص:

يطرح هذا البحث مفهوم (رواية الظاهرة التاريخية): للتعريف بطريقةٍ مختلفةٍ في استدعاء التاريخ، مثلتها رواية "مسرى الغرائيق في مدن العقيق" للروائية السعودية أميمة الخميس؛ وذلك باستدعاءها التاريخ بما هو ظاهرة تاريخية بالغة التعقيد (أزمة العقل العربي- أو العقل الحبيس بتعبير الرواية)، وينطلق البحث من فرضيةٍ محدّدةٍ، هي أنّ هذه الطريقة في استدعاء التاريخ -على خلاف الطرائق الشائعة في الرواية التاريخية- تأخذ الكتابة إلى بنيةٍ روائيةٍ مغايرةٍ، تقوم على السعة والشمول، وتتطلب جهداً معرفياً وفنياً أكبر من المعتاد. يتكوّن البحث من مقدمة وثلاثة مباحث، الأول: طريقة استدعاء التاريخ في رواية مسرى الغرائيق، والثاني: ملامح الظاهرة التاريخية في خطاب الرواية، والثالث: ما وراء الظاهرة التاريخية فيها. وخلص البحث إلى أنّ استدعاء التاريخ عبر الظاهرة التاريخية يفرض بنا إلى بنيةٍ روائيةٍ مركّبةٍ، تتمتع بالسعة والشمول، والتعاضد المستمر بين المرجعي والمتخيل، مع حالة من الثراء في جميع العناصر السردية (كثرة الشخصيات وتنوعها، كثرة الأحداث وتشابكها، اتساع الزمن، تعدد الأمكنة، ثراء الوصف.. الخ)، وتوظيف دقيقٍ لإمكاناته، وينبه البحث إلى أنّ استدعاء التاريخ مُتمثلاً بظاهرة تاريخية يرفع كلفة الكتابة الروائية، مع الأخذ في الحسبان التفاوت بين الظاهر في مستوى التعقيد، والامتداد الزمني والمكاني، ودرجة التأثير.

الكلمات المفتاحية: الرواية التاريخية، رواية الظاهرة التاريخية، استدعاء التاريخ، الرواية والتاريخ، خطاب الرواية.

\* أستاذ الأدب والنقد المساعد، قسم الأدب والبلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: الرفاعي، خ. ب. أ. (2026). رواية الظاهرة التاريخية: قراءة في رواية (مسرى الغرائيق في مدن العقيق) لأميمة الخميس، الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، 8(2): 142-161. <https://doi.org/10.53286/g3y3bv40>

© نُشر هذا البحث وفقاً لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو إضافته إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أجريت عليه.



## المقدمة:

تمثّل رواية "مسرى الغرائيق في مدن العقيق" 2017م مفصلاً مهمّاً في تجربة الروائية السعودية أميمة الخميس؛ فبعد رواياتها الثلاث ("البحريات" 2006م، و"الوارفة" 2010م، و"زيارة سجي" 2013م) التي دارت على الموضوع الاجتماعي وقضايا المرأة، صدرت هذه الرواية؛ لتعبّر عن تحوّل لافتٍ على مستوى الموضوع، من الجنساني إلى الإنساني، ومن الاجتماعي إلى التاريخي، ومن المحلي إلى العربي.

وقد أبرز هذا التحوّل تجربة الخميس بوصفها تجربةً تملك مقوّمات التطوّر، والتنوّع، والثراء، وأغرى بالتفاعل الجاد معها؛ فتعدّدت وتنوّعت الدراسات والقراءات النقدية التي تناولتها، ومنها -على مستوى الأبحاث المحكّمة في مجال النقد الأدبي-:

- "ثنائية التاريخ والتخييل في رواية مسرى الغرائيق في مدن العقيق لأميمة الخميس"، وهو بحثٌ محكّم لهيله العساف، سعت فيه إلى رصد التجاوب السردية بين الحقيقة التاريخية والتخييل السردية في الرواية، وتحليله.

- "حجاجية الأساليب الخطابية في رواية مسرى الغرائيق لأميمة الخميس"، وهو بحثٌ محكّم لعادل الغامدي، سعى فيه إلى مقارنة البناء السردية في الرواية؛ بحثاً عن أبعاد حجاجية، لأجل الكشف عن الأطروحة أو المقاصد التي اشتملت عليها الرواية.

- "أشكال حضور المدينة في رواية مسرى الغرائيق في مدن العقيق لأميمة الخميس"، وهو بحثٌ محكّم لحمدة العززي، رصدت فيه البعدين المادي والمعنوي للمدن في الرواية، ودورهما في تحريك الحدث، وتكوين التصوّر.

وقد اتفقت هذه الأبحاث -ودراسات ومقالات أخرى، نشرها روائيون ونقاد- على قيمة الرواية من الناحيتين: الفكرية والجمالية، بل ذهب بعضها إلى أنها نموذجٌ متقدّمٌ للرواية التاريخية العربية (العتيبي، 2025)، لكنّ أغلب ما نُشر عن الرواية -مما اطلّعت عليه- اقتصر على الوصف العام لها، أو إضاءة جانبٍ محدّدٍ منها (كدراسة مكّون أو مظهر سردية)، بعيداً عن القيمة التي أراها جوهرية، وهي التحوّل الفني، الذي جسّدته على مستوى العلاقة بالتاريخ.

من هنا جاء هذا البحث؛ ليلسّط الضوء على هذا التحوّل، ويكشف عن موقع الرواية المختلف في مستوى "التفاعل النصي الذاتي" كما طرحه سعيد يقطين (يقطين، 2001، ص 123)، وعن تطوّرها اللافت في طريقة استدعاء التاريخ، وقدرتها على تحقيق متطلبات هذه الطريقة على مستوى الخطاب، ولعلّ الرؤية التي يصدر عنها هذا البحث تتيح فرصة التعاطي مع الخطاب الروائي بوصفه حقلاً لاستنباط النظم والقواعد، أي: التحرك من المنطقة ذاتها، التي تمثّل الجذّر الرئيس للسردية بوصفها علمًا (إبراهيم، 1990، ص 104)، وقد يساعد هذا على تحديد بعض ما أضافته الرواية العربية للكتابة التي تقوم على العلاقة بين الرواية والتاريخ.

يطرح هذا البحث مفهوم (رواية الظاهرة التاريخية): للتعريف بطريقةٍ مختلفة في استدعاء التاريخ، مثلتها رواية "مسرى الغرائيق" باستدعائها التاريخ في صورة ظاهرة تاريخية، ويتبنى فرضيةً محدّدة، هي أنّ استدعاء التاريخ في صورة ظاهرة (أي: بناء سردي تحليلي، ممتد في الزمن، ينشأ من قراءة خاصة للتاريخ، وليس من اكتشافٍ لجوهر فيه)، يفرض على الكتابة الروائية متطلبات أكبر من متطلبات كتابة الرواية التاريخية التقليدية، ويضفي على النصّ سمات فنية، لا نجدها في الرواية التاريخية، التي تقوم على استدعاء جاهزٍ للتاريخ (التاريخ بما هو حدث، أو شخصية، أو فضاء)، حتى كأننا مع رواية الظاهرة التاريخية أمام تركيب معقد مقابل تركيب جاهز -إن جاز لي هذا الوصف-، ويظهر هذا التعقيد في طبيعة الإحساس

بالتاريخ من جهة، وفي البعد الإنشائي للرواية، ونوعية المعنى الذي يمكن أن تفضي إليه من جهة أخرى، ويتحدّد البحث في  
سؤالين رئيسين، هما:

- ما حدُّ الظاهرة التاريخية؟ وما الذي يميّزها من الطرائق الشائعة في استدعاء التاريخ؟ وما الذي تتطلبه في الكتابة  
الروائية؟

- ما أثر الظاهرة التاريخية في النص الروائي على مستويات: (التعاطي مع التاريخ)، و(وظيفة الرواية)، و(الخطاب)؟  
وما المدى الذي تتيحه الظاهرة لتوليد معنى للرواية، يمتاز بالسعة، والشمول، وتعدّد الطبقات؟  
ويمكن وضع أهداف البحث في مستويين: الإجابة عن أسئلة البحث، والكشف -ضمنًا- عن التطوّر الذي عبّرت عنه  
هذه الرواية داخل التجربة (تجربة أيممة الخميس)، وخارجها (تجربة الرواية التاريخية العربية). وقد أُطِرَ البحث بثلاثة  
مباحث، الأول: طريقة استدعاء التاريخ في الرواية، والثاني: ملامح الظاهرة التاريخية في خطاب الرواية، والثالث: ما وراء  
الظاهرة في الرواية، وهو محكومٌ منهجيًا بالتحليل السردى القائم على المقاربة التأويلية.

### المبحث الأول: طريقة استدعاء التاريخ في الرواية

غلب على الرواية التاريخية -منذ نشأتها مطلع القرن التاسع عشر- استدعاء التاريخ بإحدى طريقتين (القاضي،  
2008، ص 47، 59-61):

- إما استدعاء التاريخ بوصفه وقائع أو شخصيات تاريخية، ويقوم التاريخ في هذه الطريقة بدور مرآوي، وظيفته  
المماهة بين الماضي والحاضر.

- وإما استدعاء التاريخ بوصفه فضاءً أو مناحًا تاريخيًا، تكون الحركة فيه لأعمال متخيّلة تنهض بها شخصياتٌ  
متخيّلةٌ أيضًا، ليكون التاريخ -والحال هذه- إطارًا عامًا للكتابة الروائية، يقوم بدور تمثيلي، وظيفته المغايرة بين  
الماضي والحاضر.

ويبدو أنه نُظِرَ (إبداعًا ونقدًا) إلى هاتين الطريقتين بوصفهما الممكن في استدعاء التاريخ عبر الرواية، وبأنّ إمكانية  
التجديد في هذا الحقل مغلقة أو مستحيلة؛ إما بسبب الرؤية المحدودة، التي تُنزلُ التاريخَ في مكوّن مادي قوامه الخبر  
التاريخي، المعبر عن حدث أو شخصية أو فضاء، أو الآلية الإبداعية، التي اعتادت على السير وفق هاتين الطريقتين، والركون  
إلى سمة السهولة فيهما.

غير أنّ الأثر المستمر للتاريخ، واتساع النظر فيه، وتعدّد الفلسفات والنظريات المتفاعلة معه، تدعم -مجتمعةً-  
إمكانية التجديد في طريقة استدعاء التاريخ عبر الرواية، وتتيح فرصة تمثيلة بصورةً مختلفة، تؤثّر في منطلقات الكتابة،  
وشكلها، ووظيفتها، وهذا تحديداً ما نجده في رواية "مسرى الغرائيق"، وبمئل -من وجهة نظري- عاملاً من أهمّ عوامل التطوّر  
فيها.

إنّ من يقرأ رواية "مسرى الغرائيق" بحثًا عن طريقتها في استدعاء التاريخ، لا يمكن أن يتقبّل فكرة قيامها على  
الطريقتين المشار إليهما سابقًا، وإن كانت أقربَ إلى الطريقة الثانية، التي تستدعي التاريخ بوصفه فضاءً؛ ذلك بأنّ الشقّ  
المرجعيّ في الرواية لا يحضر عبر الحدث التاريخي، أو الشخصية التاريخية، أو الفضاء التاريخي وحسب، بل يحضر مركّبًا من  
هذه المكونات مجتمعة، وبصورة تكاد تكون مؤسّسة على التعاضد المستمر بين المرجعي والمتخيّل، وما قلته عن المرجعي،  
يمكن أن أقوله عن الشقّ المتخيّل (الذي تمثّله شخصية مزيد الحنفي): لكونه مؤطّرًا بالمرجعي، وحركته محكومة بما يسمح  
به المرجعيّ زمنيًا ومكانيًا، وبما يتسق مع الأحداث التاريخية الكبرى، وحركة الشخصيات التاريخية الفاعلة في تلك المرحلة،

وفوق هذا كله الحراك الاجتماعي المتأثر بأحداث ووقائع وعوامل متعدّدة، تعود بداياتها إلى القرن الثاني الهجري (سياسية، دينية، اقتصادية، اجتماعية.. إلخ)، وانعكاسات ما سبق على العقل، والنشاط الخادم له، وما خلفه هذا الوضع من ظواهر، تأتي في مقدّمها ظاهرة "العقل الحبيس".

هذه الحالة التي تمثلها رواية "مسرى الغرائق" هي التي تدفع إلى السؤال عن الطريقة التي استدعت بها التاريخ، وهو سؤالٌ صعبٌ، لكنه كاشف، ويتيح فرصة لرصد تطوّر التجربة من جهة، وإسهامها في تطوّر تجربة الرواية التاريخية من جهة أخرى.

### 1-1 حدّ الظاهرة التاريخية

تعدّ الظاهرة التاريخية -كما يقدّمها هذا البحث- بناءً سرديًا تحليليًا، نشأ من قراءة خاصة لمكوّنات مرجعية متعدّدة، منها ما هو أثرٌ نصي مباشر (منصوص عليه في وثيقة تاريخية مثلاً)، ومنها ما هو مرجعي غير مباشر (يُستخلص من مجموعة نصوص وأثار، بما في ذلك الأحداث والشخصيات والفضاء)، ويُفصي بنا هذا البناء إلى معنى جديد، يتجاوز صورة هذه المكوّنات ومدلولاتها؛ لذلك لا يُنظر إلى الظاهرة التاريخية -في هذا البحث- بوصفها جزءًا مكتشفًا من التاريخ، بل بوصفها قراءة منتجة، يمكن أن تتغير بتغير المكوّنات المرجعية، ومنظورات قراءتها.

وتتمتاز الظاهرة التاريخية -حسب هذا المفهوم- من باقي المكوّنات التي تقوم عليها الرواية التاريخية بالاتساع والشمول والتراكم، ويمكن تمثّل هذه السمات في أربعة مستويات:

- **المستوى التاريخي**، فالظاهرة التاريخية لا تلتزم بواقع تاريخي محدّد (كما هو الشائع في الرواية التاريخية التي تستدعي التاريخ وتوظفه بوصفه واقعة، أو شخصية، أو إطارًا)، بل هي نتاج استدعاء أكثر انفتاحًا على التاريخ، يشمل: الأثر النصّي المباشر، والمرجعي غير المباشر، وقراءة أكثر تحررًا، تتجاوز صورة هذه المكوّنات ومدلولاتها إلى معنى جديد، بسبب تحريك هذه المكوّنات في علاقات (خطوط سردية) متبادلة أو متعاضدة، بهدف تمثيل هذه الظاهرة في إطار دلالي متكامل، ينبّه على وجودها، ويكشف عواملها.
  - **مستوى الزمن**، فالظاهرة التاريخية تتسم بالتطور المستمر؛ لذلك لا يرتبط الزمن فيها بزمن الحكاية وحده، ولا بطبيعة الاتجاه الزمني الخطّي، بل يمتدّ بالاعتماد على آليات وحيل سردية متعدّدة، ومن ذلك: (الاعتبات النصّية)، و(توظيف الرحلة؛ للربط بين عدد من الأمكنة، لكل واحدٍ منها خصوصيةٌ من نوع ما)، (أو تكرار أنماط سلوكية ذات أثر في الظاهرة، إما محكية في إشارة إلى أجيال سابقة، أو غير محكية في إشارة إلى أجيال مستقبلية).
  - **مستوى الأثر**، فالظاهرة التاريخية لا تُقاس بأثرها في الحكاية وحدها، بل بأثرها الممتدّ في شبكةٍ أوسع، بما في ذلك أثرها القائم في زمن القراءة، مهما طال الفاصل بينه وبين زمن الحكاية وزمن الكتابة، وإذا كانت الرواية التاريخية وفيّة لحدود التاريخ الممثل (أيًا كانت طريقة استدعائه)، فإنّ رواية الظاهرة التاريخية تتجاوز هذه الحدود، وتحرص على ترك أطرافها الزمنية مفتوحة؛ لتظلّ الظاهرة مستمرة حتى بعد انتهاء الرواية -كما سنرى-.
  - **مستوى الأثر**، فالظاهرة التاريخية لا تُقاس بأثرها في الحكاية وحدها، بل بأثرها الممتدّ في شبكةٍ أوسع، بما في ذلك أثرها القائم في زمن القراءة، مهما طال الفاصل بينه وبين زمن الحكاية وزمن الكتابة، وإذا كانت الرواية التاريخية تشفّ عن أثر محصور في نطاق الحكاية (نهاية محدّدة) فإنّ رواية الظاهرة التاريخية تقدّم أثرًا قابلاً للامتداد إلى مجتمعات وأزمنة لاحقة، وذلك بالاعتماد على أدوات، وحيل سردية متعدّدة.
- ويجب أن يُنظر إلى هذا الأثر بوصفه جزءًا من طبيعة الظاهرة ودلالاتها، وجزءًا من الوظيفة التي تنهض بها، وليس كنتيجة للسرد؛ فالرواية لا تكون رواية ظاهرة تاريخية إلا لأنها تمثل تغييرًا أو تكرارًا أو تحولًا، يتجاوز حدود الحكاية.

- مستوى القراءة، فالظاهرة التاريخية - كما يقدمها هذا البحث - ليست قائمة بذاتها في التاريخ، تبحث عن اكتشافها أو استثمارها، بل هي نتاج قراءة خاصة، تنظر إلى التاريخ بوصفه مادة قابلة لإعادة البناء، وتنوع التمثيل، ورواية الظاهرة التاريخية - في هذا السياق - ليست إلا صورة من صور هذه الممارسة الخلاقة تجاه التاريخ، وهذا يعني أن القراءة ليست شرفة مطلّة على الظاهرة التاريخية، بل هي شرط وجودها، ويعني - أيضاً - أن الظاهرة التاريخية ليست موجودةً بهذه الصورة إلا في الرواية التي تمثّلها تحديداً. ومن المهم التنبيه هنا إلى أن الوعي بهذه الطريقة المختلفة في استدعاء التاريخ متطلب مهم لقراءة رواية الظاهرة التاريخية وفهمها؛ لذلك يمكن ردُّ كثير من الآراء النقدية حول رواية "مسرى الغرائق"؛ لكونها تنطلق في قراءتها من منطلق غير واعٍ بهذه الطريقة - وسأشير في تفاصيل البحث ضمناً إلى بعض هذه الآراء -.

### 1-2 التمييز بين الرواية التاريخية ورواية الظاهرة التاريخية

انطلاقاً من حدّ الظاهرة التاريخية الذي عرضته في الجزئية السابقة أحاول في هذه الجزئية التمييز بين رواية الظاهرة التاريخية والرواية التاريخية، مع أهمية الإشارة في البدء إلى أن هذا التمييز لا يعني قطع الصلة بين النوعين، فكلّهما تنطبق عليه المحدّدات التي اقترحها محمد القاضي لضبط الخصائص المميزة للرواية التاريخية، وهي: المحدّد المرجعي (الجمع بين التخييل والواقع التاريخي النصي)، والمحدّد الوظيفي (الجدل بين نصين)، والمحدّد الدلالي (ما تفضي إليه الرواية من مجموع إشارات النصية) (القاضي، 2008، ص 80) إلا أن صورة التاريخ المُستدعى في رواية الظاهرة التاريخية تفرض على هذا النوع ما يميزه من الروايات التاريخية، التي تشترك في النظر إلى التاريخ، وفي طرائق استدعائه، ويمكن تحديد هذا التميّز من ثلاث جهات:

الأولى: العلاقة بين الكتابة والتاريخ، حيث تبدو في الرواية التاريخية أفقية - كما يشير (لوكاتش) -، بينما تبدو في رواية الظاهرة التاريخية امتدادية أو تراكمية، تقوم على تمثيلٍ زمني مفتوح، فصورة التاريخ مختلفة على مستوى الحجم بين الاثنين، مؤطّرة في الرواية التاريخية، ومحزّرة من التأطير في رواية الظاهرة التاريخية. والثانية: صورة الكتابة، حيث تبدو في الرواية التاريخية سردية، بينما تبدو في رواية الظاهرة التاريخية سردية تحليلية، أي غير محايدة، بسبب انطوائها على نزعة نقدية للتاريخ والإنسان، ممتدة من الماضي إلى الحاضر. والثالثة: الوظيفة، ف (لوكاتش) يحدّد وظيفة الرواية التاريخية المعاصرة بـ "إيقاظ الحاضر"، فيقول: "إنّ كاتب الرواية التاريخية لا يلتفت إلى الماضي بوصفه ماضياً ميتاً، بل يعيد إحياءه، ويربطه بالحاضر، ويجعل منه تاريخاً حياً" (لوكاتش، 1978، ص 89)، ويصف (لوكاتش) الرواية التاريخية التي تحقّق هذه الوظيفة بالرواية الحقيقية، وقد دخلت هذه الوظيفة في التكوين النظري للرواية التاريخية المعاصرة، فلا يكاد يخلو بحثٌ من تأكيدها، كما دخلت أيضاً منطقة الوعي بهذا النوع السردية لدى الروائيين، وتحكّمت بعملية الكتابة، فالماضي في وعيهم من هذه الزاوية لا يختلف عن الماضي في وعي المؤرّخ، فهو في الحالين - وعيٌ بالحاضر (درّاج، 2004، ص 81).

وهذه الوظيفة التي تهض بها الرواية التاريخية متحقّقة أيضاً في رواية الظاهرة التاريخية، لكن من خلال بناء صورة مختلفة للتاريخ، أو عبر تمثيل التاريخ بطريقة تغيّر النظر إليه وإلى الحاضر في آنٍ واحد، وهنا تظهر النزعة النقدية للتاريخ التي تهيمن على الكتابة في رواية الظاهرة التاريخية بصورة واضحة؛ فالماضي في هذا النمط من الكتابة ليس السابق، بل المختلف، والحاضر فيها ليس امتداداً للماضي الذي نعرفه، بل امتداداً للماضي الذي يختلف عما تتصوّره، ولكي نفهم الحاضر نحتاج إلى تمثيل مختلف لجذوره، أي: محاولة تحريره من علاقته المتوهّمة والمتوهّمة بالمرجعي.



وإذا اقتنعنا بما سبق سنتبين المسافة التي تفصل بين (الرواية التاريخية)، و(رواية الظاهرة التاريخية)، على مستوى الوعي بالتاريخ، فهو موضوعي في الرواية التاريخية، ينظر إلى التاريخ بوصفه ناجزًا وقابلًا للمعرفة الموضوعية، وتأتي في رواية الظاهرة التاريخية، ينظر إلى التاريخ من موقع مختلف، يتيح فرصة لتأمله بأثر رجعي، ويساعد على استثمار التجارب اللاحقة في قراءته، وهذا ما جعلني ألحُ على مفردة (بناء) في الجزئية السابقة؛ إذ إنَّ بناء معنى للتاريخ (وليس اكتشافه) هو روح رواية الظاهرة التاريخية.

وعليه تمتاز رواية الظاهرة التاريخية - من وجهة نظر هذا البحث - برؤيتها المنفتحة لمفهوم التاريخ، وعلاقتها الامتدادية النقدية به، وتشكيلها سردية تحليلية، قائمة على قراءة خاصة للمكونات المرجعية، وبالمعنى الخلاق الذي تنتهي إليه، وتجعلنا أمام التاريخ بصورة جديدة ممتدة.

### 3-1 متطلبات كتابة رواية الظاهرة التاريخية

يُظهِرُ (لوكاتش) في كتابه: "الرواية التاريخية" عنايةً واضحةً بمتطلبات كتابة الرواية التاريخية؛ إذ ينصُّ في مواضع متعدّدة على طبيعة المهمة التي يتصدّى لها الروائي، والأعمال التي يجب أن ينهضَ بها، والميزة التي تُميّزُ الروائيَّ التاريخيَّ كما يراها، ويمكن أن نلتقط هذه العناية من مواضع كثيرة في كتابه، مثل قوله:

- "وإنها مهمة الروائي التاريخي أن يصوّر هذا التفاعل المحسوس..." (لوكاتش، 1978، ص50).
  - "إنَّ على الروائي التاريخي أن يتوجه إلى طريق آخر.." (لوكاتش، 1978، ص432).
  - "وقد كان الروائيون الكلاسيكيون قادرين على نقل عظمة صادقة جدًا وغير مدّعية، نقلًا بسيطًا جدًا، واقتصاديًا جدًا..." (لوكاتش، 1978، ص441).
  - "وتكمن قوة الروائيين القدامى في أنهم أعطوا مكانَ الصدارة للصدمات الإنسانية" (لوكاتش، 1978، ص441).
- هذه العناية بالمقدرة التي يجب أن يتوفر عليها كاتب الرواية التاريخية تعبر -ضمنًا- عن إيمان لوكاتش بصعوبة الكتابة في حقل الرواية التاريخية؛ الأمر الذي يتطلب -من وجهة نظره- كاتبًا من نوع خاص، يتوفر له الوعي بالرواية التاريخية، والمعرفة بالتاريخ، والأدوات الضامنة لبناء نص ثري في تمثيل التاريخ، أي: إنَّ الصعوبة التي يلمح إليها (لوكاتش) معرفية من جهة، وتقنية من جهةٍ أخرى.
- وإذا كان هذا يخصُّ الرواية التاريخية التقليدية، أو حتى تلك التي عرفتها مرحلة ما بعد الحداثة، والتي تستدعي التاريخ من خلال مكوّن مادي محدّد، فإنَّ رواية الظاهرة التاريخية تتطلب مقدرة أعلى في المعرفة والكتابة، بسبب صدورها عن نزعة نقدية للتاريخ -كما مرّ بنا-.

وتزداد صعوبة كتابة الظاهرة التاريخية بحسب نوع الظاهرة التاريخية المرشحة للكتابة، فثمة فرق بين ظاهرة يمكن حصر امتدادها في مجال، وأخرى متشظية يمكن أن نلمس أثرها في الإنسان، بغضِّ النظر عن طبيعة تكوينه، أو طبيقته الاجتماعية، أو دوره الاجتماعي، أو مرحلته الزمنية، وتتضاعف الصعوبة حين نستحضر الفرضية التي أطرحها في هذا البحث، وهي أنّ كتابة رواية الظاهرة التاريخية، تتطلب فضاءً فنيًا يشبه الظاهرة من حيث السعة والشمول والتراكم، في المستوى التاريخي، والمستوى الزمني، والأثر الممتد من التاريخ إلى الحاضر، والإشارات التي تشحن الكتابة بالتأويل، ما يعني إلمامًا أوسع بالتاريخ، وجهدًا أكبر في التمثيل، ودقة بالغة في البناء؛ لذلك يؤكد هذا البحث أنّ كتابة رواية الظاهرة التاريخية تأتي بوصفها مرحلة متقدّمة في كتابة الرواية المتصلة بالتاريخ، وفي الوعي بالرواية التاريخية بوصفها جنسًا فرعيًا، ولا يمكن أن يتأتّى هذا في عمليّ روائي مالم تسنده معرفة واسعة بالتاريخ بوجهٍ عام، وبالظاهرة التي تعالجها الرواية على وجه التحديد،



وكما أسلفت فإنّ الظواهر تتفاوت في العوامل المؤثرة فيها، وفي مناطق اشتغالها، ومستوى تأثيرها؛ لذلك فإنّ كتابة رواية تقوم على تمثيل ظاهرة تاريخية متشظية كظاهرة العقل الحبيس في رواية "مسرى الغرائق"، تختلف في الكم والنوع عن كتابة رواية تقوم على تمثيل ظاهرة أقل امتداداً وتعقيداً؛ إذ تتطلب الأولى قدرة على تتبّع أثرٍ يمتدّ عبر مجالات متعددة (سياسية، دينية، فقهية، فلسفية)، دون أن يفقد تماسكه السردي.

#### 4-1 العلاقة بالتاريخ في رواية "مسرى الغرائق"

تربط رواية "مسرى الغرائق" قارئها بالتراث بدايةً من العنونة التي تحيلنا مفرداتها وأسلوبُ صياغتها إلى المتن التراثي مباشرة، ومروراً بعبئة الإهداء التي تعزّز هذا الارتباط بظهور اسم واصل بن عطاء (ت.131هـ)، بوصفه مهدي إليه (الخميس، 2019، ص5)، وواصل بن عطاء اسم فاعلٍ في خريطة الحراك الفكري العربي في عصره، فقد أسس فرقة الاعتزال، ومثّل اتجاهًا في علم الكلام، ونقل مراجع عدّة طرقاً من آثاره وتصانيفه وإن فُقد أكثرها (الشواشي، 1993، ص85-92).

ولا تكتفي الرواية بما سبق، بل تفتتح الحقل السردى بإشارة زمنية بالغة الدقة: "السبت 4 شعبان 402 للهجرة - 1 آذار 2012 للميلاد" (الخميس، 2019، ص7)، أي: بذكر اليوم، والشهر، والعام، وفق التأريخين: الهجري والميلادي، معبّرة بذلك عن حرص بالغ على وضع القارئ سريعاً في التفاصيل الدقيقة للنقطة التاريخية التي تحيل إليها، وهي نقطة كفيلة بالاشتغال المباشر في ذهن القارئ؛ لكونها تنتمي إلى العصر العباسي (عصر الازدهار العربي القديم)، على مسافة قرنين ونصف القرن تقريباً من نشوء الدولة العباسية، وفي مفصلٍ مهم من مفاصل التحولات التي أفضى إليها الانفتاح الثقافي، حيث الترجمة، وتعدّد المذاهب، وثورات النشاط الفلسفي، وظهور الطبقات الاجتماعية، وتعدّد وجوه الصراع السياسي والفكري والاجتماعي، وانعكاسات ذلك كلّ على القرنين: الرابع والخامس، وهذا يجعلنا أمام نقطة تاريخية مهمة في تكوين القارئ، وذاكرته، ووجدانه أيضاً؛ لذلك لا يجد صعوبةً في الدخول المباشر للرواية، والاستحضار السريع للإشارات النصية المفعلّة داخل هذه النقطة التاريخية.

ولم تترك الرواية القارئ لذاكرته/ معرفته بتلك المرحلة، بل سعت إلى تفعيل هذه الجوانب عبر السرد، ففي الأسطر الأولى من الرواية نقرأ:

"أقصد مدينة القدس، ولسنّ نبياً ولا قديساً ولا مبشراً، ولسنّ مريدًا في مرحلة أولى من معراج السؤال، كي أنقّب عن جوابي في حلقات الجوامع، ووحشة الصوامع، ولكنني محض تاجرٍ كُتّب، في زمن الفتنة والاحتراب، وشهوة إحراق المدونات والمخطوطات، وتطهير الذنوب بجمرها" (الخميس، 2019، ص7).

إنّ هذا الجزء من البداية يشير إلى راوٍ داخلي، يمثّل الشخصية الرئيسية، وهي شخصية تاجر كتب في زمن الفتنة، يستعدّ للانتقال من بغداد إلى القدس، وهذه الإشارات ليست اعتباطية، بل بنائية مهمة، يُراد لها أن تضع القارئ أمام وجهٍ من وجوه تلك النقطة التاريخية، وهو الوجه الذي يعبر عنه النشاط المرتبط بإعلاء شأن العقل، ومن هنا يمكن فهم اغتناء البداية بالمفردات المحفّزة لهذا الجانب (نبي، قديس، مبشّر، مُريد، سؤال، جواب، جوامع، صوامع، كُتّب، زمن الفتنة، المدونات، المخطوطات...إلخ)، ولو استرسلنا في قراءة البداية، لوجدنا تناميًا واضحًا في هذه الإشارات، لا يملك القارئ التحرّز من توجيهها، وهذا الاغتناء يؤكّد ما عرضته -سابقًا في جزئية (المستوى التاريخي)- من تجاوز رواية الظاهرة التاريخية المكوّنة التاريخية السطحية، إلى إنتاج شبكة دلالية مترابطة، تُبنى معها معالم الظاهرة التي تعالجها الرواية، وهي -هنا- ظاهرة العقل الحبيس، التي تعود بداياتها إلى بدايات نشاط الاتجاه العقلي العربي، بما اشتملت عليه من تنوّع، وما أفضت إليه في القرنين



الرابع والخامس من تفاعلات وتداعيات في السياقات المختلفة: الفكرية، والفلسفية، والدينية (العقدية والفقهية)، والسياسية، والاجتماعية.

وإذا كنتُ قد أشرتُ -في المبحث الأول- إلى صعوبة كتابة الظاهرة التاريخية، فإنني أشير هنا إلى تضاعف هذه الصعوبة، حين تكون الظاهرة بالغة التعقيد، ومرتبطة بجوانب عميقة في تكوين الإنسان العربي، ومفتوحة في التأثير والتأثير على عوامل لاحد لها، وهو ما نجده في الظاهرة التي تتناولها رواية "مسرى الغرائيق"، خاصة إذا استحضرننا -أيضاً- أن أثر الظواهر لا ينحصر في نطاق الحكاية (رحلة مزيد الحنفي)، بل يمتد إلى زمن القراءة/ زمن القارئ مهما تباعد.

### المبحث الثاني: ملامح الظاهرة التاريخية في خطاب الرواية

أخصّصُ هذا المبحث لتسليط الضوء على جوانب في خطاب الرواية، بالقدر الذي يعكس لنا تأثرها بطبيعة الظاهرة التاريخية المُمثَّلة، وسأتوقف -بإيجاز- عند الرحلة (بوصفها الخطّ السرديّ الرئيس في الرواية)، والشخصية، والزمن.

#### 1-2 الرحلة بوصفها خطأً سردياً للظاهرة التاريخية

"أقصد مدينة القدس.."

بهذه الجملة فُتِحَ الحقلُ السردى للرواية على شخصية مزيد الحنفي، الشاب النجدي، تاجر الكتب في زمن الفتنة والاحتراب، وهو في طريقه إلى مدينة القدس، في رحلةٍ فرضها عليه الواقع الذي عايشه في بغداد: "ركلتني بغداد خارجها ولم أغادرها طوعاً، مغوية بغداد ومتوحّشة، كفاتنةٍ تسلَّلتُ إلى خباياها، ورشفتُ بنابيعها، وقطفْتُ ثمارها، وفي الفجر طلبتُ مني بشراسةٍ مغادرتها" (الخميس، 2017، ص12).

ومضت الرواية بعد ذلك في تتبُّع هذه الرحلة:

- الفصل الأول: خروجه من بغداد إلى القدس.
- الفصل الثاني: (استرجاع خارجي)، خروجه من اليمامة إلى بغداد، مروراً بهجر والبصرة.
- الفصل الثالث: استكمال رحلته إلى القدس، مروراً ببصرى الشام.
- الفصل الرابع: خروجه من القدس إلى القاهرة، مروراً ببيت لحم، فالخليل، فرفح، فالعريش. قتل الزقازيق، فعين الشمس.
- الفصل الخامس: رحلته من القاهرة إلى القبروان.
- الفصل السادس: رحلته من القبروان إلى المربة الأندلسية.
- الفصل السابع: رحلته إلى قرطبة، مروراً بغرناطة، وفيها سُجِن، وأُغلقَ الحقلُ السردى.

إنّ العرض السابق يوضح أنّ الرحلة هي الخطّ السردى الرئيس في الرواية، وأنّ تقدُّمها سببٌ رئيس في النمو العضوي للرواية، فكلُّ محطة جديدة في الرحلة، تفضي بنا إلى فصلٍ جديد في الرواية، ولستُ في حاجة للإشارة هنا إلى أنّ الرحلة وعاءٌ ظارفاً لما اشتملت عليه الرواية من أحداث وشخصيات، وكلُّ مظاهر التطوُّر في الرواية (الأحداث، الحكبة، نمو الشخصية، تعدُّد الأمكنة... إلخ) عُقدت على قافية هذه الرحلة؛ لذلك يجب أن تُقرأ الرحلة في هذه الرواية بوصفها خطأً لبناء الظاهرة التاريخية التي تمثَّلها؛ فالامتداد الزمني الذي حقَّته الرحلة، والتعدُّد والاتساع المكانيان، وكثرة الأحداث وتنوعها، وكثرة الشخصيات وتعدُّد أبعادها وتنوع مستوياتها، وما آلت إليه رحلة الحنفي (السجن في قرطبة)، كلّها تعكس طبيعة أو حقيقة الظاهرة التاريخية المُمثَّلة من وجهة نظر الرواية.

والرحلة في هذه الرواية ليست صانعةً لانفتاح عناصر السرد وحسب، بل قائمة على الانفتاح من الداخل، ولو تأملنا سماتها لوجدنا أنها مماثلة لسمات أدب الرحلة، المصاغ في القرنين: الرابع والخامس الهجريين، من حيث اشتغالها على وصف الطبيعة، ووصف مظاهر الحياة، ووصف الإنسان، وهو وصفٌ لا يبتعد كثيراً عن آليات الوصف التي لاحظتها الدراسات في أدب الرحلة في هذين القرنين (الشقران، 2015م، ص 29-87)، إلا من جهة تضمين السرد مفردات قد تنبّه بطريقة غير مباشرة إلى الزمن الحاضر، وهذا يجعلنا أمام سمةٍ جوهريةٍ في الرواية، هي أنها لا تستدعي التاريخ بوصفه مادة سردية، أو مكوناً مادياً (أحداث، شخصيات، فضاء) فقط، بل تستدعي أيضاً شكلاً من أشكاله السردية، وهو أدب الرحلة بآلياته وسماته في القرنين: الرابع والخامس الهجريين، فمزيد الحنفي يروي رحلته وفق آليات وصفٍ تعيد إنتاج هذا النموذج التراثي؛ الأمر الذي يجعلنا أمام التاريخ كاتباً وليس مكتوباً عنه وحسب، ويمكن دعم هذه الملحوظة بالإشارة إلى حضور عمليات الكتابة في تفاصيل الرواية، كالحديث عن أدواتها، والتحديات التي واجهتها في بدايات القرن الخامس، والفئة التي عُرفت بها في المجتمع البغدادي (الخميس، 2017م، ص 66، 71)، فالرحلة هنا ليست أداة كشفٍ بقدر ما هي آلية انكشاف، تمكن القارئ من رؤية الظاهرة من الداخل، وليس من الخارج فقط.

وإذا كانت الرحلة -أي رحلة- محكومةً بالحركة، وهذه الحركة تؤدّي دورها في تقدّم القائم بفعل الرحلة نحو الوجهة/ الوجهات التي يقصدها، فإننا نلاحظ أنّ رواية "مسرى الغرائق" تستثمر الرحلة لتحقيق العكس تماماً، وهو أنّ كلّ تقدّم (مادي) في رحلة مزيد الحنفي، يخلق حالة ارتدادٍ (معنوي) في نفسه، وكلّ مدينة يمرُّ بها مفترضاً أنها فرصةٌ للخلاص، تتجلى له (وللقارئ) كعقبةٍ جديدة، تدفع باتجاه البحث عن خلاصٍ جديد، وهكذا مرّ مزيد من بغداد إلى القدس إلى القاهرة إلى القيروان، في رحلة طويلة غايتها البحث عن الحرية والنجاة بالعقل، وقد كان يجني منها خيبة أكبر، كلما تقدّم مكاناً وزماناً: "مغوية بغداد ومتوحّشة" (الخميس، 2017، ص 12).

- "عندما غادرتُ بغداد ظلّت تتنازعها السيوف والألسن، مليئة بالبشر الخطائين، والشعراء الجياع، محض عقيقة مُسربةٌ بالدماء، وشهوة التغلّب" (الخميس، 2017، ص 278).
- "لكن أين ما كانوا يزعمونه حول الأندلس، التي تحتفي بعلوم الكلام والحكمة والفلسفة، وتجلّ شيوخها؟ يبدو أنه حينما يدخل الجندُ من الباب، تخرج الفلسفة من النافذة" (الخميس، 2017، ص 460).
- "داخلتي الخيبة، ووقع في روعي أن ليس في المرية من يرغب في الكتب وبقنتها" (الخميس، 2017، ص 471).
- "فقلتُ لها بأسى: في هذه الدرب لا ترين سوى مدن العقيق، التي تنبض بالدم والجراح، إنها مدن التغلّب التي لا يروم ملوكها سوى السلطان" (الخميس، 2017، ص 522).
- ماذا تخبين لي يا قرطبة... أنا مزيد النجدي، ضربتُ لك أكباد الإبل من قلب نجد، فلم أجدك سوى مدينة أخرى من مدن العقيق، تبرق بالثارات والدماء... ماذا لديك يا قرطبة لفتي بهض دائماً من حضيضه ليحلّق في البعيد؟ أي مدينة أروم بعدك؟ فأنت تعين فوق كتف العالم" (الخميس، 2017، ص 555).
- وقد انتهت هذه الرحلة بالسجن في قرطبة داخل غرفة حجرية مصمتة:
- "أنا مزيد الحنفي النجدي، من بلد ذات زرع وضرع، ويتابع جارية، ونعم سارحة، أنا الغرنوق السري، تربصت بي شباك الظلمة، وأخذتني إلى غرفة تنوح أحجارها الثقيلة كلّ ليلة، وهي تسرد أحزان من مزوا هنا... يجب أن أحرق كلّ شيء، وأعود لأحلّق من رمادي" (الخميس، 2019، ص 559).

- "أنا جنين العتمة، سجين المخاضات الأبدية، أمضي أزمانى ودهوري، متربصاً بلعبة الضوء والظلّ، مترقباً تنفّس الصباح، عبر النافذة الضيّقة، أعلى زناتي" (الخميس، 2017، ص559).

أردتُ من عرض المقتطفات السابقة وضع القارئ أمام الارتدادات المعنوية والنفسية التي كانت تتجدّد في أعماق مزيد الحنفي بتجدّد محطات رحلته، وتزداد أثرًا في نفسه مع طول المسافات التي قطعها، وهذه سمة مهمّة تتصل بطبيعة الظاهرة التاريخية التي مثلتها الرواية، حتى كأنّ الرحلة تحقّق فعل الانتقال؛ لتكريس حالة الثبات، في صورة تشبه الركض في المكان، وهذه المفارقة (التراجع المعنوي النفسي مقابل التقدّم المادي المكاني)، تعكس جوهر الظاهرة التاريخية في هذه الرواية، وهو أنّ حركة العقل -في السياق العربي- لا تحقّق الانفتاح، بل تعيد إنتاج الانغلاق.

وعودة إلى منطق الرحلة المحكوم بالحركة، يمكن أن أشير إلى سمة فنية أخرى، هي دافع الانتقال وغايته، فرحلة مزيد ليست لغاية الترويح أو المشاهدة، بل هي رحلة اضطرار، مدفوعة بالرغبة في الخلاص؛ فكلّ مدينة جديدة في الرواية إنما جاءت لتعزّز بحث مزيد المتواصل عن الخلاص، فهو إذن انتقال دائم مستمرّ، لطنه لم يفض به إلى الغاية (الاستقرار/ الحرية/ فضاء المعرفة المنتظر)، ولعلّ تكرار هذا الانتقال بحثًا عن الخلاص، هو ما انتهى به إلى السجن في تلك الغرفة الحجرية، فكان السجّن هنا هو الخلاص الحقيقي، أو الخلاص المُتاح، لا لأنه منح مزيد الاستقرار، بل لأنه حرّره من وهم الانتقال، وهذا المعنى يكشف صورة الانغلاق التي تواجه العقل العربي، أو ظاهرة "العقل الحبيس" كما تعبّر الرواية.

وانطلاقًا من هذه الإشارات (إطلاق الحركة لتعرية الثبات، دخول السجن تحقيقًا للخلاص) يمكن أن ننتبه إلى أنّ سمات الرحلة القائمة على الاتساع والشمول والانفتاح، إنما استثمرت لكشف حالة الانغلاق العربي على مستوى هذه الظاهرة، وهذه المفارقة تكشف خطورة هذا الانغلاق، وتمكّنه من الذات العربية، فالرحلة هنا ليست أداة لاجتراح الأحداث ونقلها ورفصها، أو للتجول في التاريخ العربي والإسلامي واستعراضه ووصفه (كما هو المتوقع)، بل هي أداة تعكس هذه الظاهرة المعقّدة، ليشرح القارئ -مع تقدّم القراءة- أنّه لا يقرأ الظاهرة عبر رحلة مزيد الحنفي، بل يعيشها تجربة حسية، لا في حدود زمن القصة وحسب، بل حتى في زمن القراءة، يقول واسيني الأعرج بعد قراءته رواية "مسرى الغرائيق": "إنّ اختيار الرحلة كفنّ لاكتشاف جمال وخراب المدن العربية القديمة، يجعلنا نقوم بعمل إسقاطي، نعيش شرطية الحاضر القاسي والجميل أيضًا، لكننا نتابع محنة مزيد وهو يكتشف أسرار المدن وقلقها الحضاري والثقافي وخوفها من الآتي، كأن لا شيء تغير على الرغم من أن الفاصل بيننا وبين وقائع الرواية أكثر من عشرة قرون" (الأعرج، 2022).

وهذا يعني أنّ الأثر لا يقتصر على تمثيل الظاهرة، بل يمتدّ إلى تشكيل تجربة القارئ، واستثمار وعيه في تأكيد اتساعها وشمولها، وهو ما عرضت له سابقًا في (مستوى الأثر)، و(الامتداد الزمني)، حيث تكون القراءة شرطًا لوجود الظاهرة، وعاملًا رئيسًا في بنائها.

## 2-2 الشخصية

### 1-2-2 الشخصية الرئيسة

تنتهي الشخصية الرئيسة في رواية "مسرى الغرائيق" إلى عالم التخيل، لكنّها -في المقابل- مُفعّلة في خطّ سردي مُحاط (وربما محاصر) بالمرجعي؛ فالزمن والأمكنة ومحمولاتها، والأحداث الكبرى وتداعياتها، والشخصيات التاريخية المؤثرة وتأثيراتها، تحيط -مجتمعة- بالخطّ السردي الذي مثلته رحلة مزيد الحنفي، وقد احتكّ الحنفي فعلاً ببعض الشخصيات التاريخية (كلقائه ابن الهيثم في القاهرة)، وتأثرت رحلته ببعض العوامل السياسية (كتجنّبه ورفاقه المرور بدمشق خوفًا من العصابات التي كانت تقطع الطريق مستغلة توتر العلاقة بين ملك الروم والدولة الفاطمية)، واتصل مزيد بصريًا وثقافيًا،



مادياً ومعنوياً، بملامح الثقافة والحضارة وعواملها في ذلك العصر؛ لذلك لا يمكن تلقي شخصية مزيد الحنفي إلا بالنظر إليها من جهتين:

- جهة المتخيّل؛ لكونها شخصية غير واقعية، تقوم برحلة متخيّلة.
  - وجهة المرجعي؛ لكون حركتها مؤطرة زماناً ومكاناً بإطارٍ مرجعي، وجميع أحوالها وأفعالها وأحوالها جاءت محكومةً بهذا الإطار؛ الأمر الذي أدى إلى تعزيز واقعية السرد لدى المتلقي (العساف، 2018، ص228) والتعاطي مع هذه الشخصية من إحدى الجهتين دون الأخرى، يؤدي -ضرورةً- إلى اختزالها، إما في المتخيّل فقط (عطفًا على هويتها السردية)، وإما في المرجعي فقط (عطفًا على قوة/ نفاذ السياق الذي تتفاعل معه، أو تتقلب بين يديه في رحلته الطويلة)، والاكْتفاء بإحدى هاتين الجهتين سيؤثر حتمًا في فهم الرواية، وفي استيعاب تأثر خطابها بسمات الظاهرة التاريخية التي تمثّلها.
- لقد منحت إستراتيجية السرد التي تبنتها رواية "مسرى الغرانيق" شخصية مزيد الحنفي موقعًا مثاليًا، وذلك بوضعها داخل المتخيّل، ثم وضع هذا المتخيّل داخل المرجعي، بوصفه فضاءً إنسانيًا، ثريًا بالأحداث والشخصيات التاريخية، وهذا يتجاوز بنا صورة التاريخ كخلفية (كما في بعض الروايات التاريخية) إلى التاريخ كفضاء فكري، يتفاعل مع شخصية متخيّلة، تقوم برحلة متخيّلة، فالتاريخ هنا لا يعدو كونه ركائز مفسّرة للأحداث (إبراهيم، 2011، ص5)، الأمر الذي يعبر عن وعي ناضج يحدود العلاقة بين الرواية والتاريخ.

وقد انبنت على هذا المسار سمةً أخرى، هي رمزية مزيد الحنفي، التي نشطت -بسبب التعاضد بين المرجعي والمتخيّل- في مستويين:

- مستوى سطحي، ناتج عن مجريات الأحداث، وأقوال الشخصية، وأحوالها، تمثّله رمزية مزيد الحنفي، الدالة على السّراة الغرانيق.
- ومستوى عميق، يكوّنه قارئُ الرواية في حدود الإشارات النصية، وهي رمزية مزيد الحنفي الدالة على أزمة العقل العربي (العقل الحبيس)، منذ زمن الانفتاح الأول إلى اليوم، وعلى امتداد العالم العربي، من مشرقه (بغداد مثلاً) إلى مغربه (قرطبة)، وبكامل أنماطه السياسية، وتكويناته الثقافية (مدن المركز كبغداد - مدن الهامش كاليمامة)، فمزيد هنا يرمز إلى العقل العربي، ورحلته هي رحلة العقل العربي، وما مرّ به في الرحلة من تحديات، يحاكي ما مرّ ويمرّ به العقل العربي من دوافع وموانع، وانفراجات وانفجارات، ولعلّ عتبة الإهداء تدعم هذه الإشارة، فالروائية تُهدي روايتها "إلى السراة الغرانيق، من واصل بن عطاء إلى محمد عابد الجابري: مآلات العقل الحبيس" (الخميس، 2017، ص5)، فنحن نستطيع وضع هذا الإهداء في خط موازٍ لرحلة مزيد:

رحلة مزيد الحنفي	بداية من بغداد	← انتهاء بقرطبة	المآل: السجن
نص عتبة الإهداء:	من واصل بن عطاء	مروّزًا بجميع السّراة	مآلات العقل الحبيس

الغرانيق

فهذا التطابق يدعم الإشارة السابقة إلى تعدّد الرمزيات في الشخصية الرئيسة، وهو تعدّدٌ تفرضه طبيعة الظاهرة الممثّلة، التي لا تقف حدود تأثيرها عند فئةٍ دون أخرى، أو في نشاطٍ إنساني دون آخر، إنها تمثّل لأزمة العقل العربي، وهي أزمة يمكن أن تتّمسك أثارها في كلّ شيء، ونظرًا لكون شخصية مزيد الحنفي متخيّلة، ومن نمط الشخصيات النامية المركبة،



فإنَّ الخروجَ بالإشارات الكاشفة لرمزيتها يتطلب قراءةً واعيةً بأليات بناء الظاهرة في الخطاب. وعليه يمكن القول إنَّ هذا الافتتاح لم يكن خياراً اختارته الروائية، بل جاء بضغطةٍ من المعنى، وقد توجَّهت جميع السياقات بصورة تلقائية إلى خدمته.

## 2-2-2 الشخصيات الروائية الأخرى

إذا انتقلنا من الشخصية الرئيسة إلى باقي شخصيات الرواية فسنلاحظ تمتّعها بالكثرة، وتنوعها بين مرجعي (كابن الهيثم) ومتخيّل (كأبي قنديل، والمصري حسن، والحدّاد الفارسي، وآخرين)، وتعدّد أبعادها، وتنوع مستوياتها، بين شخصيات في المتن الاجتماعي، وأخرى على هامشه، والكثرة والثراء في شخصيات الرواية ناتجان عن إستراتيجية الكتابة، التي تقوم على الرحلة، وتجدّد العوالم داخل السرد، وحاجة مزيد المستمرة إلى إقامة علاقات متعدّدة في كلّ مدينة؛ لتضمن له التقدّم في فضاءها، كعلاقته بشخصية مؤدّن الجامع أبي قنديل، التي كانت سبباً في انتقاله من المبيت في المسجد إلى السكن في خان أبي الحسن الهاشمي، وقد قاده السكن في هذا الخان لاحقاً إلى شخصيات أخرى، كشخصية حسن (الخميس، 2017، ص 58-66). ونلاحظ -في هذا السياق- حاجة المعنى لكثرة الشخصيات وتنوعها، فكلُّ شخصية في بنائها السردية -وإن قلَّ شأنها في عين القارئ- تمثّل نمطاً من أنماط البحث عن خلاص، على طريقتها الخاصة، وبما يتيح لها السياق في الحكاية من فرص وإمكانات؛ فالخلاص الذي كان يبحث عنه اليميني حزقيال (الخميس، 2017، ص 53) -مثلاً-، غير الخلاص الذي كان يبحث عنه التاجر أبو محمد بن عمر (الخميس، 2017، ص 60-61)، وقد انتهت الرواية وأغلب شخصياتها في حالة بحثٍ عن خلاص لا يفضي بها إلى شيء، وهذا البعد يُسهم في خدمة الظاهرة التاريخية الممثّلة؛ لأنه يعيد إنتاج نمط العقل الحبيس خارج الخط الرئيس للسرد، ويكشف أنها ظاهرة جماعية وليست فردية، وأنّ مآلات الانغلاق الذي انتهى إليه مزيد الحنفي ليست قصة فرد، بل حالة أمة، وهذا يؤكّد ما أشرتُ إليه في (مستوى الأثر)، حيث تمتدّ دلالة الظاهرة، من الفرد إلى الجماعة، ومن زمن الحكاية إلى زمن القراءة، ويكون دور الرواية ضحّ الطاقة السردية، التي تضمن لهذه الظاهرة مزيداً من الاتساع والشمول. وإضافة إلى هذا الملحظ نجد كثرة الشخصيات تؤدي أدواراً أخرى، مباشرة وضمنية، منها -على سبيل المثال- كشف أجزاء مهمة من سمات الأماكن، وطبائعها المميزة (العززي، 2021، ص 332)، بما يعزّز حضور التاريخ، ويفعل في الآن ذاته صورة الرحلة في عوالمه.

## 3-2 الزمن

تتبنى رواية "مسرى الغرائيق" في بناء الزمن اتجاهاً تتابعياً متصاعداً، يبدأ من مغادرة مزيد الحنفي بغداد (يوم السبت 4 شعبان 402هـ) إلى القدس، وينتهي بأسره في قرطبة (405هـ)، ولم تنكسر هذه الخطية الزمنية إلا مرة واحدة فقط، بمقطع استرجاعي كبير، استغرق الفصل الثاني كاملاً؛ ففي هذا الفصل يعود بنا الراوي إلى ما قبل مغادرة مزيد الحنفي إلى بغداد، إلى أيامه في اليمامة، ورحلته منها إلى بغداد (في 4 محرم 400هـ)، وقد كان هذا الفصل أطول فصول الرواية، حيث استغرق 161 صفحة، مما يطرح سؤالاً مهماً عن بداية الرواية بلحظة خروج مزيد الحنفي من بغداد إلى الأندلس، بدلاً من خروجه من اليمامة إلى بغداد، علماً بأنّ الخيار الثاني أكثر انسجاماً مع الخطية التي تبنتها الرواية في اتجاهها الزمني، وبصيغة أخرى: ما الذي دفع الرواية إلى اختيار انفتاح الحقل السردية برحلة مزيد الثانية، ثم العودة إلى رحلته الأولى بمقطع استرجاعي خارجي كبير؟

يمكن فهم هذه المفارقة إذا استحضرننا طريقة الرواية في استدعاء التاريخ، فهي طريقة تتطلّب شخصية رئيسة متخيّلة، تضمن حركتها الاتساع والشمول اللذين يتطلّبهما تمثيل الظاهرة، خاصة إذا كانت الظاهرة على قدر كبير من

التعقيد؛ لذلك بدأت الرواية بخروج مزيد من بغداد بدلاً من خروجه من اليمامة؛ لأنَّ هذه المنطقة الزمنية منطقة قوة للشق المتخيّل في الرواية، من جهتين:

- من جهة تكوين مزيد الحنفي؛ فتكوينه الفكري والنفسي بعد خروجه من بغداد إلى القدس أقوى منه حين خرج من اليمامة إلى بغداد، أي: إنّ إقامته في بغداد سنتين جعلته أقدر على بلورة الموقف الخاص، واتخاذ القرار الصعب، وهذا منحه أبعاداً مادية ومعنوية، أسهمت في تحريك خط السرد (الرحلة)، ومن ثمّ تقوية الشق المتخيّل من الرواية وتمتينه. وهذا لن يتحقّق لو أنّ الرواية اختارت انفتاح الحقل السردي بخروجه من اليمامة إلى بغداد؛ لكونه خرج منها يلاحق حلاً غير مؤطّر، وغير معروف للمتلقّي (المشهوري، 2019)، بل خرج مسكوناً بشعور الضعف والحزن والخوف: "يفري كبدي نشيج الوائلية، وحشّتي من القادم، وخوفي من ظلمة الطريق" (الخميس، 2017، ص33).

- ومن جهة طبيعة الفضاء، فالخروج إلى بغداد، ودخولها، والتقلّب فيها، سيجعلنا أمام فصلٍ ثري بالتفاصيل المرجعية (الوقائع التاريخية، الشخصيات التاريخية، الوصف المرجعي المكاني لبغداد)، وهذا الجانب إذا أضيف إلى سابقه، سيؤدي إلى إضعاف المتخيّل لحساب المرجعي، ويؤثّر سلباً في تلقي الشخصية، وفي قدرة الرواية على تمثيل الظاهرة.

ومما سبق نلاحظ أنّ الفارق ليس في اتجاهات الرحلة، ولا في الفارق الزمني القائم بين الرحلتين (سنتين)، بل في مزيد الحنفي نفسه، فهو بعد تجربة بغداد غيرُه حين انطلق من اليمامة، لقد بدأت الرواية بمزيد وهو يخرج من بغداد إلى القدس خروج اضطرار لا خروج اختيار (كما كان خروجه من اليمامة)؛ لكنّ هذا الاضطرار بدأ معبراً عن ذاتٍ مستقلة، وبناء عليه فإنّ هذا المقطع الاسترجاعي (الذي تكوّن منه الفصل الثاني) لا يقطع التتابع الزمني وحسب، بل يعيد إنتاج منطوق (التاريخ كاتّباً)، حيث بدأت الرواية من النقطة التي بدأ فيها مزيد الحنفي قادراً على قيادة تمثيل الظاهرة، بدعمٍ من العناصر السردية الأخرى، إضافة إلى أن هذا الاسترجاع أسّس لقراءة الظاهرة في عمقها التكويني، قبل أن يُمكن القارئ من مشاهدة نموّها وامتدادها في صورة صراعٍ حي، إضافة إلى أنّ هذا المقطع قدّم فعالية إقناعية مهمة كما يلاحظ عادل الغامدي، فهو بوقوعه زمنياً خارج زمن الحكاية حقّق موارد، لا تظهر إلا عبر ثقوب الذاكرة، مما يمنح اليمامة أهمية زمنية استثنائية في الرواية؛ فهي وحدها (من بين جميع المدن) التي ظلّت حاضرة على امتداد الرواية، بينما كانت كلّ مدينة تظهر مع بداية فصلٍ من فصول الرواية وتنتهي بهايته، إضافة إلى أنّ الوضع الزمني الخاص باليمامة في الرواية، جعلها - كما يلاحظ الغامدي - بمنأى عن فحص مزيد الحنفي، ونقده، وموقفه، وبصيغة أخرى: جعل اليمامة منزّهة عن الشوائب التي ظهرت في باقي محطات الرحلة (الغامدي، 2021، ص478)؛ وهذا يفسّر لنا الحضور المكثّف لليمامة في نهاية الرواية، مع انقطاع الأمكنة (بسجن مزيد الحنفي في غرفة حجرية)، ومع غياب الأزمنة (بانقطاع معرفته أو شعوره بالزمن)، وعليه فإنّ البعد الزمن في خطاب الرواية، ينتهي إلى الخطابات الروائية، لا سيما التاريخية، التي استثمرت إمكانات الزمن بطريقة مغايرة لما نجده في الروايات التقليدية (يقطين، 2005، ص166).

وانطلاقاً من الإشارات التي خرجنا بها من تحليل الخط السردي (الرحلة)، والشخصية، والزمن، نلاحظ تعاضد هذه العناصر لبناء هيكل سردي، غايته تمثيل الظاهرة وكشفها، وتشقّف طبيعة تبين كلّ عنصر سردي على حدة، عن وعي الروائية بطبيعة الظاهرة التي تمثّلها، وحاجتها إلى تعدّد العناصر، وبنائها بطريقة تمنحها القدرة على تمثيلها، بما تنطوي عليه



من تعقيد وصراع، وهذا فرقٌ جوهري بين روايةٍ تكتفي بتمثيل التاريخ (كما في الروايات التاريخية)، وأخرى تمثله لتسائله، وتسائله لتنتقده (كما في رواية الظاهرة التاريخية).

المبحث الثالث: ما وراء استدعاء الظاهرة التاريخية في الرواية

نتجاوز -في هذا المبحث- تتبع ملامح الظاهرة التاريخية في الخطاب، إلى الدلالة العامة للرواية: لئرى المعنى الكامن وراء هذه الطريقة في استدعاء التاريخ وتمثيلاتها.

لقد عبّرت الرواية عن اتساع حجم الظاهرة التاريخية التي تناولتها بأكثر من مستوى، أهمها المكان والزمن، فعلى مستوى المكان، كوّنت الرواية خريطة مكانية واسعة، منحت الظاهرة فضاءً جغرافياً شاسعاً، بحيث لا يمكن أن تُعدّ خريطةً رحلة، بل قوة تشكيلية كاشفة، من اليمامة، إلى بغداد، ثم القدس، ثم مصر، ثم القيروان، وانتهاءً بقرطبة، أماكن عكست العالم العربي من مشرقه إلى مغربه، تجمع بين مدن المتن في تلك المرحلة ومدن الهامش؛ لتدلّ على أنّ الظاهرة عابرة لكلّ ما سبق، وفاعلة في كلّ ما سبق، ولا يمكن أن يُستثنى منها فرد ولا مكان ولا مرحلة، فإذا كانت بغداد -مثلاً- الموطن المرشّح (كما توقع مزيد الحنفي) لتقديم إجابات معرفية، والتحرّز من أنماط الفكر الحاجزة، فإن السؤال قد تشكّل في اليمامة، في سكونها وعزلتها، وهذا السؤال تشكّل في ذهن شاب لم يتجاوز العشرين، وهذا الشاب الذي غادر اليمامة في عام 400هـ باحثاً في بغداد عن زادٍ لشغفه المعرفي، وجد في بغداد حقيقةً أخرى، وكوّن فيها موقفاً مستقلاً/مختلفاً، لذلك لفظته بغداد، فخرج منها فاعلاً في مسرى البحث، وقافلة السؤال.

هنا تبدو ثنائية المركز والهامش وهماً، يصنعه الخطاب الزائف باعتماده على الفارق في البناء الحضاري والتنوع الثقافي، بينما الواقع يأخذنا -على مستوى نشاط العقل- إلى نهاية واحدة، السجن السابق أو اللاحق، أي: إنّ مدن المركز تبدو متحركة وهشة، أكثر منها استقراراً في مصالحة العقل والمعرفة.

لقد مرّ مزيد الحنفي بمدن متعددة، عبّر الوصف عن امتيازها الحضاري والثقافي، لكنّ الإنسان والرهان على عقله واجه أزمة في جميع هذه المدن، بل كلما زاد رصيد المدينة من وهج التاريخ، ومكتسبات الحضارة، زادت أزمة الإنسان فيها، وعزّز عليه الخلاص.

ويأتي الزمن في الرواية مؤكداً أيضاً حجم هذه الظاهرة، فهو زمنٌ خطي، والخطية أكثر أنماط الزمن تعبيراً عن الانفتاح والاستمرار والتصاعد، خاصة مع ارتباطها بالرحلة، وخاصة عندما توقفت هذه الرحلة اضطراراً بسجن مزيد الحنفي، وإيقاف انتقاله الدائم بحثاً عن الخلاص.

وقد استخدمت الرواية المفارقات الزمنية، لتوسيع زمن القصة على المستوى الدلالي، ولفتح قنوات تربط القارئ بالصيرورة التي أفضت بالإنسان في تلك المرحلة التاريخية إلى الأزمة، وهي قنوات كفيّلة بالاشتغال -كما أسلفنا- خارج حدودها الزمنية، حين ينتبه القارئ لحالة التماثل بين ما يقرأه وما يعيشه واقعاً، ويلحظ أنّ العوامل هي العوامل، والمآلات هي المآلات، أي: إنّ أزمة الإنسان العربي (أزمة العقل) ليست عابرة بل متكررة، وليست خاصة بمرحلة زمنية بل عامة، وإذن فالقارئ مع رواية الظاهرة التاريخية ليس متلقياً سلبياً، بل شريكاً في إنتاج المعنى، فهو الذي يعيد اكتشاف خيوط الظاهرة أو امتداداتها في واقعه، وهذا يتصل بمستوى القراءة الذي عرضتُ له في المبحث الأول.

ولعل توسيع المدى الزمني في الرواية لمواكبة حجم الظاهرة لم يقف عند زمن القصة، أو المفارقات الزمنية (بوصفها أداة من أدوات الخطاب)، بل تجاوزته إلى العتبات، فجاءت عتبة الإهداء لتأخذ قوسي الزمن إلى أبعد نقطة ممكنة، فالإهداء موجّه إلى عددٍ لا يُحصى من الفاعلين في مبحث العقل وقلق السؤال، إلى جمعٍ وليس إلى فرد أو أفراد محدّدين، وقد تضمنت

عتبة الإهداء الإشارة إلى شخصيتين مهمتين، هما: واصل بن عطاء (ت.131هـ)، ومحمد عابد الجابري (ت.1431هـ)، وكلاهما يقف على خط التعاطي مع مبحث العقل، وتكوينه، وأدوات اشتغاله، ونقده، مع ملاحظة أنّ الأول من المشرق والآخر من المغرب، أي: إنّ عتبة الإهداء تدعم حيل الرواية - على مستويي المكان والزمن - في توسيع المدى؛ للتعبير عن حجم الظاهرة، وامتدادها، وتكررها.

ولم تكتف عتبة الإهداء بتحديد المهدي إليهم، بل حدّدت سبب الإهداء، وهو "مآلات العقل الحبيس"، وهذا يشفّ لنا عن تحرّف واضح إلى دعم معنى الرواية بشكل مباشر، ودعم ما أشرتُ إليه سابقًا من رمزية مزيد الحنفي ورحلته على العقل العربي وأزمته، حيث الحبيس في الإهداء معادل للحبيس في الحكاية، ورحلة مزيد الحنفي موازية للخط الطويل الذي اختطه الإهداء من (عطاء) إلى (الجابري).

وإذن فالظاهرة التي تمثّلها الرواية:

- ممتدة في الزمن، كما يعكس هذا الخطّ الزمني الذي عبّر عنه الإهداء، وعبرت عنه رحلة مزيد الحنفي من المشرق العربي إلى المغرب، على امتداد خمس سنوات.
- تمتاز بالسعة والشمول، كما يعكس هذا كمّ الشخصيات، وتنوعها، وشكل العلاقات التي كانت تربط بينها وبين مزيد الحنفي، وتعدّد محطات الرحلة، وثناء البعد البصري للأمكنة، إضافة إلى نهاية الرواية - كما سيأتي -.
- كاشفة، كما يعبر عن هذا ضيق بغداد بالشباب النجدي، وانكماش مدن المركز في عينه واحدة تلو الأخرى، وصعوبة استقراره فيها حتى مع ما يظهره وجهها من انفتاح حضاري وثقافي.
- شديدة التعقيد، كما تعبر عنه رحلة مزيد الحنفي، والصعوبات المتنوعة التي اعترضتها، وبحثه هو عن الاستقلال في سياق مترع بالعوائق والمهدّدات، بدءًا بالعامل السياسي، ومرورًا بالعامل الاجتماعي المنصرف اضطرارًا أو اختيارًا عن هذا المعنى، وليس انتهاءً بالعامل النفسي الميال بطبعه إلى حبّ الدنيا وملذاتها وشهواتها، والمسكون بالدعة، والمأخوذ بتزعة القوة، ونشوة التغلّب والسيطرة، فجميع هذه العوائق والمهدّدات أحاطت بمزيد الحنفي منذ مغادرته اليمامة، ولم تنفك عنه إلا حين انتهى به الأمر مسجونًا في غرفة حجرية بقرطبة، في صورة تعبر عن حجم التعقيد في هذه الظاهرة التاريخية، وكيف أنّ هذا التعقيد يكبر من الزمن ولا يصغر، ويتسع ولا يضيق، ويتقدم مع رغبة الفرد ولا يتراجع، لكنّ هذا الانغلاق لا يعني غياب الوعي بالأزمة؛ فالرواية تمنح مزيد في مشهد الانغلاق مساحة إدراك: "يجب أن أحرق كلّ شيء، وأعود لأحلّق من رمادي"، وهذا الوعي - وإن لم يقدم حلاً - يُخرج الشخصية من الانغلاق على مستوى الوعي، أو من فكرة تكرار الانتقال كحلّ وحيد، إلى فكرة التجاوز، ليكون الحريق تطهيرًا لا انهزامًا، وتكون محنة العقل منحةً له، وهذا يتسق مع إشارتي السابقة إلى السجن بوصفه خلاصًا من وهم الانتقال، فالوعي بهذا الوهم خطوة أولى إلى تحوّل حقيقي، وعليه فإنّ الرواية لا تقف عند حدود تمثيل الظاهرة، بل ترسل إشارات - في صوت مزيد الأخير - إلى وجود مخرج ما، إلى إمكانية بعث جديد، يبقى مفتوحًا على القراءة والتأويل، أي: إنّ القراءة مستمرة بعد الرواية، مستمرة إلى ما لا نهاية.

إنّ الرواية تمثّل حالة الأزمة المزمّنة للعقل العربي، التي لا تواجه عائقًا واحدًا بل عوائق متعدّدة، ليست خارجية وحسب (سياسي، اجتماعي مثلاً)، بل داخلية أيضًا (داخل تجربة الفرد، وفي جوهر تكوينه)، وهكذا تبدو الأمكنة ومستوى انفتاحها، ودوافع الفرد للحرية واستقلال العقل، صورًا جدّابة، تخفي وراء ظهرها ركامًا من الخيبات التاريخية، وهكذا انتهى حلم مزيد الحنفي إلى انغلاق تام: انغلاق مكاني (السجن في غرفة حجرية بقرطبة)، وانغلاق زمني تام، حيث غابت مع دخوله

السجّن جميع المؤشّرات والإشارات الزمنية، فلا ندري -مثلاً- متى سُجِنَ، ولا كم لبث في سجنه، بل حتى البعد الزمني الموضوعي، المتمثّل في تعاقب الليل والنهار، وتتابع الفصول قد تعطلّ في آخر الرواية، فلا يعرف مزيد بعض فصول السنة إلا من نافذةٍ كانت في أعلى الغرفة، يتلمّس من فرجاتها غصنَ الشجرة المجاورة؛ لمعرفة حدود الزمن الموضوعي، وتبعاً للانغلاق المكاني والزمني نجد انغلاقاً نفسياً كاملاً، نقرأ - في آخر الرواية على لسان مزيد -:

"لستُ خائفاً، ولا مطمئناً، ولا حزيناً، ولا مكلوماً، ولا يائساً، قلبي فارغ فقط كأنه ساحة معركة كبرى، قد انسحبت عنها الجيوش، وخلفت أسهماً منكسرة، وسيوفاً منثلمة في أكفٍ مقطوعة، كانت تتأهب لاحتضان حبيب، وعمائم لرؤوس كانت مضمخة بالأحلام، وأحذية داخلها أقدام كانت تبحث عن درب العودة. لستُ خائفاً، ولا حزيناً، ولا مستوحشاً، ولا أيّ شيء، أهنكذا تكون مشاعر الموتى بطعم التراب؟" (الخميس، 2017، ص556).

إنّ المعنى الذي نستخلصه من هذه الرواية لا يأتي في شكل رسالة، بل هو نتاج قراءة لآليات الظاهرة؛ فالقارئ الذي يعيش أزمة العقل العربي اليوم، هو القادر على إكمال بناء الدلالة، وهو الذي يُدرِك -أكثر من غيره- أنّ العقل الحبيس ليس حدثاً في التاريخ، بل بنية ممتدة/ متراكمة إلى زمن القراءة، ولا ترتفع معالم الظاهرة إلا بتفاعل القارئ معها، والإمسك بخيوطها في واقعه، وبهذا تصبح رواية الظاهرة التاريخية أداة كشف وإضاءة، لا وثيقة جاهزة، ولا محاولة لاستثمار قوة التاريخ ومَنَعَتِهِ في تفسير الحاضر.

#### النتائج:

- خُصّ هذا البحث إلى أنّ استدعاء التاريخ في الرواية ليس محصوراً في مكوناته المادية البارزة (الحدث التاريخي، الشخصية التاريخية، الفضاء التاريخي)، بل يمكن التفكير في طرائق جديدة، تتجاوز هذه المكونات التقليدية، منها: استدعاء التاريخ بما هو ظاهرة تاريخية، وقد قدّم هذا البحث الظاهرة التاريخية بوصفها بناءً سردياً تحليلياً، ينشأ من قراءة خاصة لمكونات مرجعية متعدّدة المستويات، ويفضي إلى معنى يتجاوزها.

- تتجلى خصوصية هذه الطريقة في أربعة مستويات:

• المستوى التاريخي (فالظاهرة هنا لا تُبنى على واقع تاريخي، أو حقيقة من حقائق الماضي، بل على نمطٍ من التمثيل، يفضي إلى معنى مختلف/ جديد).

• ومستوى الزمن (فالظاهرة تتسم بالامتداد الزمني، تحقّقه لها آليات وإشارات داخل النصّ وخارجه).

• ومستوى الأثر (فالظاهرة ممتدة إلى زمن القراءة، وقادرة على التأثير في القارئ بمعونة زمنه).

• ومستوى القراءة (فالظاهرة نتاج للتأويل، وليست جزءاً مكتشفاً من التاريخ، والقراءة جزءٌ من عملية تمثيلها، وتشكّل معناها).

- تمتاز رواية الظاهرة التاريخية من جملة الروايات التي تستدعي التاريخ (عبر الحدث أو الشخصية أو الفضاء) بالآتي:

• نوع علاقتها بالتاريخ (علاقةً امتداديةً وليست أفقية - بتعبير لوكاتش).

• وإستراتيجية الكتابة (سرديةً تحليليةً، وليست سرديةً وحسب).

• ومستوى وعيها بالتاريخ (وعي تأويلي، وليس موضوعياً).

ويشير البحث إلى أنّ رواية الظاهرة التاريخية تفرض متطلبات أكبر على الكاتب والقارئ، وتتسع هذه المتطلبات

باتساع الظاهرة المُمثّلة وتعقيدها. فكلما كانت الظاهرة أكثر شمولاً وتشعباً، ازدادت متطلبات تمثيلها سردياً.

طبّق البحث مفهوم الظاهرة التاريخية ومستوياته التحليلية على رواية "مسرى الغرائيق في مدن العقيق" لأميمة  
الخميس، وانتهى إلى أنّها استدعت التاريخ عبر ظاهرة تاريخية معقدة، هي ظاهرة "العقل الحبيس"، وأنّها انطوت  
على إمكانات سردية، مكّنتها من تمثيل هذه الظاهرة، من ذلك:

- الرحلة بوصفها خطأً سردياً رئيساً، وقد استدعت شكل أدب الرحلات في القرنين: الرابع والخامس  
الهجريين، حتى بدا معها التاريخ كاتباً ومكتوباً في آنٍ واحد.
- الشخصية الرئيسة وإحالاتها الرمزية: السطحية (دلالتها على السُّرأة الغرائيق)، والعميقة (دلالتها على  
رحلة العقل العربي ومآلاتها).
- الشخصيات، كثرتها، وتنوّعها بين مرجعي ومتخيل، مع تعدّد أبعادها ومستوياتها، وقد كشفت بذلك كلّها  
عن الطابع الجماعي للظاهرة.

• الزمن: اتجاهه ومفارقاته وآليات تفعيله، ودوره في مدّ الزمن لمحاكاة الظاهرة في امتدادها وتشعّبها.  
وقد أدّى انفتاح كلّ عنصر سردي في الرواية دوراً ملموساً في بناء معالم هذه الظاهرة، من تشكّلها حتى الانغلاق  
الذي شهدته في آخر الرواية، مما كشف وعياً سردياً بمتطلبات هذا التمثيل، وأدواته، وغاياته، وتطوراً لافتاً داخل  
تجربة الخميس الروائية.

• واستخلص البحث من تحليل الرواية أنّ أزمة العقل العربي لا تواجه عائناً واحداً بل عوائق لاحت لها، بعضها  
خارجي، وبعضها الآخر داخلي (يتصل بتكوين الفرد ورغباته)، وأنّ مآلات العقل في مدن المركز (كبيداد والقاهرة في  
القرن الخامس)، لا تختلف عن مآلاته في مدن الهامش (إقليم اليمامة آنذاك)، وأنّ ثنائية المركز والهامش في تناول  
هذه الأزمنة وهمّ كرسه الخطاب الزائف، إما بتعويله على الخطاب التاريخي الذي تشكّل في هذه المدن وانحاز إليها،  
وإما بانخداعه بالقشرة الحضارية، التي تخفي وراء زينتها عقلاً حبيساً.

• وتتجاوز الرواية -بإشارات النصية- حدّ تمثيل الظاهرة إلى إضاءة المستقبل، وذلك بتحريك الشخصية الرئيسة  
لحظة سجنها من وهم الانتقال وخديعة الثنائيات، وإبراز إدراك الفرد لهذه الأوهام، بوصفه الانفراجة التي يمكن  
أن تقود إلى معالجة الظاهرة. وقد نجحت الرواية عند هذه النقطة بإيقاف جميع العناصر السردية (غياب  
الأمكنة، تعطلّ الزمن، سجن الشخصية، قطع تواصلها مع العالم الخارجي)، وفتح المجال للقارئ/ القراءة؛  
للتفاعل مع الظاهرة، انطلاقاً من إدراك خاص/ مختلف، وتأويل مفتوح وجريء، وهي نهاية لافتة، تعيد القيمة  
للفرد أمام سطوة الظاهرة، وتمنحه فرصة المشاركة بدلاً من التلقي السلبي.

### المراجع:

- إبراهيم، ع. (1990): *المتخيل السردى: مقاربات نقدية في التناسخ والرؤى والدلالة* (ط.1). المركز الثقافي العربي.  
إبراهيم، ع. (2011)، *التخيل التاريخي: السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية* (ط.1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.  
الأعرج، و. (2022). *مسرى الغرائيق: رحلة العقل السجين*، شبكة الأمة برس، في 23 فبراير 2022م.  
البازعي، س. (2020). *مصائر الرواية* (ط.1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.  
الخميس، أ. (2017). *مسرى الغرائيق في مدن العقيق* (ط.1). دار الساقى.  
دزاج، ف. (2004). *الرواية وتأويل التاريخ: نظرية الرواية والرواية العربية* (ط.1). المركز الثقافي العربي.  
ريكور، ب. (2009). *الذاكرة، التاريخ، النسيان* (جورج زيناتي، ترجمة؛ ط.1). دار الكتاب الجديدة المتحدة.



- زّباد، ف. (2012): *الرواية العربية والتنوير: قراءة في نماذج مختارة* (ط.1): دار الفارابي.
- شقران، ن. (2015). *خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري* (ط.1). الآن ناشرون وموزعون.
- الشواشي، س. (1993). *واصل بن عطاء وآراؤه الكلامية* (د.ط.). الدار العربية للكتاب.
- العتيبي، ز. (2025). *قراءة لوكاتشوية لرواية مسرى الغرائق في مدن العقيق، الجزيرة، السعودية*، (19125).
- العساف، ه. (2018). *ثنائية التاريخ والتخييل في رواية مسرى الغرائق في مدن العقيق لأميمة الخميس، مجلة آداب البصرة*، (85)، ص 208 – 245.
- العززي، ح. (2021). *أشكال حضور المدينة في رواية مسرى الغرائق في مدن العقيق لأميمة الخميس، مجلة مقامات للدراسات اللسانية والنقدية الأدبية*، (2)5، ص 321 – 346.
- الغامدي، ع. (2021). *حجاجية الأساليب الخطابية في رواية مسرى الغرائق لأميمة الخميس، مجلة الجامعة الإسلامية للغة العربية وآدابها*، (2)، ص 473 – 503.
- القاضي، م. (2008). *الرواية والتاريخ: دراسات في تخييل المرجعي* (ط.1). دار المعرفة للنشر.
- لحمادني، ح. (1991). *بنية النص السردية من منظور النقد الأدبي* (ط.1). المركز الثقافي العربي.
- لوكاتش ج. (1978). *الرواية التاريخية* (صالح الكاظم، ترجمة)، دائرة الشؤون الثقافية العامة.
- المشهورى، م. (2019). *المسرى ومحطات العبور: قراءة في رواية أميمة الخميس "مسرى الغرائق في مدن العقيق" (1)*، *جريدة الجزيرة، السعودية*، (16963)-(16970).
- يقطين، س. (2001). *انفتاح النص الروائي: النص والسياق* (ط.2). المركز الثقافي العربي.
- يقطين، س. (2005). *تحليل الخطاب الروائي: الزمن- السرد- التثوير* (ط.4). المركز الثقافي العربي.

#### References

- Ibrāhīm, ʿ. (1990). *Al-mutakhayyal al-sardi: Muqārabāt naqdiyyah fi al-tanāṣṣ wa-al-ruʿā wa-al-dilālah* (1st ed.). Al-Markaz al-Thaqāfi al-ʿArabi.
- Ibrāhīm, ʿ. (2011). *Al-takhayyul al-tārīkhī: Al-sard wa-al-imbrātūriyyah wa-al-tajribah al-istiʿmāriyyah* (1st ed.). Al-Muʿassasah al-ʿArabiyyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr.
- Al-Aʿraj, W. (2022, February 23). *Masrā al-Gharāniq: Riḥlat al-ʿaql al-sajīn*. Shabakat Ummah Press.
- Al-Bazīʿī, S. (2020). *Maṣāʾir al-riwāyah* (1st ed.). Al-Muʿassasah al-ʿArabiyyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr.
- Al-Khamīs, U. (2017). *Masrā al-Gharāniq fi mudun al-ʿAqīq* (1st ed.). Dār al-Sāqī.
- Darrāj, F. (2004). *Al-riwāyah wa-taʾwīl al-tārīkh: Nazariyyat al-riwāyah wa-al-riwāyah al-ʿArabiyyah* (1st ed.). Al-Markaz al-Thaqāfi al-ʿArabi.
- Ricœur, P. (2009). *Al-dhākīrah, al-tārīkh, al-nisyan* (George Zinātī, Trans.; 1st ed.). Dār al-Kitāb al-Jadīdah al-Muttaḥidah.
- Zayyād, F. (2012). *Al-riwāyah al-ʿArabiyyah wa-al-tanwīr: Qirāʾah fi namādhij mukhtārāh* (1st ed.). Dār al-Fārābī.
- Shaqrān, N. (2015). *Khiṭab adab al-riḥlāt fi al-qarn al-rābīʿ al-Hijrī* (1st ed.). Al-Ān Nāshirūn wa-Muwazzīʿūn.
- Al-Shawwāshī, S. (1993). *Waṣīl ibn ʿAṭāʾ wa-ārāʾuhū al-kalāmiyyah*. Al-Dār al-ʿArabiyyah lil-Kitāb.
- Al-Uṭaybī, Z. (2025). *Qirāʾah Lukācsyyah li-riwāyat Masrā al-Gharāniq fi mudun al-ʿAqīq. Al-Jazirah*, (19125).
- Al-Assāf, H. (2018). *Thunāʾiyyat al-tārīkh wa-al-takhyil fi riwāyat Masrā al-Gharāniq fi mudun al-ʿAqīq* li-Umaymah al-Khamīs. *Majallat Ādāb al-Basrah*, 85, 208–245.



- Al-'Anzī, H. (2021). Ashkāl ḥuḍūr al-madīnah fī riwāyat *Masrā al-Gharānīq fī mudun al-'Aqīq* li-Umaymah al-Khamīs. *Majallat Maqāmāt lil-Dirāsāt al-Lisāniyyah wa-al-Naqdiyyah al-Adabiyyah*, 5(2), 321–346.
- Al-Ghāmīdī, ' (2021). Hījājiyyat al-asālib al-khiṭābiyyah fī riwāyat *Masrā al-Gharānīq* li-Umaymah al-Khamīs. *Majallat al-Jamī'ah al-Islāmiyyah lil-Lughah al-'Arabiyyah wa-Ādābiḥā*, 2, 473–503.
- Al-Qaḍī, M. (2008). *Al-riwāyah wa-al-tāriḥ: Dirāsāt fī takhyīl al-marja'ī* (1st ed.). Dār al-Ma'rīfah lil-Nashr.
- Laḥmdānī, Ḥ. (1991). *Binyat al-naṣṣ al-sardī min manzūr al-naqd al-adabī* (1st ed.). Al-Markaz al-Thaqāfi al-'Arabī.
- Lukács, G. (1978). *Al-riwāyah al-tāriḥiyyah* (Ṣāliḥ al-Kāzim, Trans.). Dā'irat al-Shu'ūn al-Thaqāfiyyah al-'Āmmah.
- Al-Mashhūrī, M. (2019). *Al-masrā wa-maḥaṭṭāt al-'ubūr: Qirā'ah fī riwāyat Umaymah al-Khamīs "Masrā al-Gharānīq fī mudun al-'Aqīq"* (Part 1). *Al-Jazirah*, (16963–16970).
- Yaqṭīn, S. (2001). *Infiṭāḥ al-naṣṣ al-riwā'ī: Al-naṣṣ wa-al-siyāq* (2nd ed.). Al-Markaz al-Thaqāfi al-'Arabī.
- Yaqṭīn, S. (2005). *Taḥlīl al-khiṭāb al-riwā'ī: Al-zaman, al-sard, al-tab'īr* (4th ed.). Al-Markaz al-Thaqāfi al-'Arabī.

